الحلقة (٤)

سنتكلم إن شاء الله – وحديثنا موصولاً عما كان في الحلقات الماضية – سنتكلم عن التوحيد ومعانيه وعما يتعلق بذلك.

مصدر التوحيد: وحد، يوحد، توحيد، أي: جعلك الشيء واحدا، قد جاء في السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث معاذ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إنك تأتي قوما أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه، أن يوحدوا الله**)، وجاء أيضاً في قول الصحابي ـ جابر ـ رضي الله عنه حيث قال: "فأهلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوحيد، في قوله: لبيك الله اللَّهُمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك" التلبية المعروفة، هذا ما يتعلق بلفظ التوحيد كما جاء ذكرها في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

معنى التوحيد في اللغة: جعلك الشيء واحد، أي: أن تفرد الشيء، تجعله واحداً،
فتوحيد الله سبحانه وتعالى، أن تجعل الله واحداً في ربوبيته وأسمائه وصفاته وألوهيته سبحانه وتعالى، وعلى ذلك دلت النصوص

التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام كما قسمه كثيرٌ من أهل العلم، وكما هو التقسيم المشهور:

- توحيد الربوبية،
- توحيد الألوهية،
- توحيد الأسماء والصفات، هذا التقسيم هو المشهور، **لكن بعض أهل العلم قسم تقسيماً آخراً، قسمه على قسمين:**

◄ **توحيد في المعرفة والإثبات** ؛ المقصود توحيد في المعرفة أي: بأفعال الله سبحانه وتعالى في الربوبية، وفي الإثبات: إثبات ماأثبته الله لنفسه، وأثبت له رسوله ـ صلى الله عليه وسلم، من الأسماء والصفات .

◄ **توحيد في القصد والطلب** ؛ يراد به توحيد الألوهية.

هذا ما يتعلق بالتقسيم الآخر، هذه الأقسام الثلاثة المشهورة أو على التقسيم الآخر، جاءت في عبارات المتقدمين، من أئمة الحديث والأثر، فجاء عند أبي جعفر الطبري في التفسير وغيره وكلام ابن بطة وكلام ابن مندة رحمه الله وكلام ابن عبد البر، وغيرهم من أهل العلم، من أهل الحديث والأثر؛ خلافا لمن يزعم من المبتدعة المتأخرين أن هذا من إنشاء ابن تيمية ومن تبعه وسار على نهجه، مثل ما حدث في الدعوة الإصلاحية (دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله) وهذا يعرفه كل منصف اطلع على كتب أئمة السلف ورجع إليها.

إذا نسير على التقسيم المشهور وهو تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

▣ **النوع الأول: توحيد الله سبحانه وتعالى بأفعاله**، الذي هو التوحيد الخبري العلمي، توحيد في المعرفة

وهو التوحيد الاعتقادي، هذا النوع من التوحيد ليس هو الغاية من التوحيد، ولا يكفي وحده للدخول في الإسلام، فقد كان المشركون مقرين به، فلم ينفعهم ذلك ولم يدخلهم في الإسلام، لأنهم أشركوا في توحيد الألوهية، كما سيأتي بيان ذلك، لصرفهم بعض أنواع العبادة لغير الله عز وجل، كالدعاء و الذبح والطواف وغير ذلك مما كانوا يصرفونه لمعبوداتهم من دون الله عز وجل.

يقول الله سبحانه وتعالى: { قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }، **وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية**، فمن أقر بأن خالقه من العدم هو الله ومالكه ورازقه، وأن الله هو المتصرف بجميع أموره المدبر لها يلزمه أن يشكر الله سبحانه وتعالى على ذلك بأن يوحده بالعبادة وأن يطيع أوامره وأن يجتنب نواهيه، ويحرم عليه الشرك الذي هو ضد التوحيد في عبادة الله سبحانه وتعالى.

هذا التوحيد له **أدلة من الفطرة**، فقد فطر الله سبحانه وتعالى على الإقرار بربوبيته، وأنه هو الخالق الرازق، المحي المميت، وله أيضاً أدلة في دلالة الأنفس، فالنفس آية كبيرة من آيات الله الدالة على ربوبيته سبحانه وتعالى، أيضاً يدل على توحيد الربوبية، دلالة الآفاق، فلو تأمل الإنسان الآفاق وما أودع الله، فيها من الغرائب والعجائب لأدرك أن هناك خالقا لهذه الأكوان، يقول الله سبحانه وتعالى: { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } [فصلت: (٥٣)]، يدل أيضاً على توحيد الربوبية وعلى هذا النوع من أقسام التوحيد، **الأدلة العقلية** على توحيد الربوبية، لا نحتاج إلى الأدلة العقلية ؛ ولكن البعض من لم يدخل في هذا الدين من الملحدين الذين يدعون أنهم لا يعبدون شيئا، وهم يعبدون أهواءهم، يحتاج إلى مثل هذه الأدلة العقلية، لإثبات توحيد الربوبية.

فإن هم أنكروا الكتاب والسنة وأنكروا جميع الدلائل التي سبق ذكرها قبل قليل، يتحتم علينا أن نورد عليهم هذا الدليل، عسى أن ينفعهم به الله عز وجل، ويقروا بالله سبحانه وتعالى، ويتلو ذلك ما بقي من أنواع التوحيد.

هذا الدليل مشهور عند أهل النظر [المتكلمين]، يوجد عندهم دليل التمانع وهو باختصار: أنه لو كان لهذا العالم خالقان؛ فعند اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم ويريد آخر تسكينه، أو يريد أحدهما إحياءه ويريد الآخر إماتته أو يريد أحدهما رفعه والآخر يريد خفضه، وهكذا؛ أي: أنهما يختلفان على أمر محدد؛ إذا حصل هذا الخلاف، فإن ما سيحصل أحد أمور ثلاثة:

- **الأمر الأول**: أن يحدث مرادهما؛ أي: يحدث التحريك والتسكين مع بعضهما؛ **وهذا ممتنع**، لأنه يستلزم الجمع بين الضدين.
- **الأمر الثاني**: أن يحصل مراد واحد منهما؛ أي: يحصل إما التحريك أو التسكين.

- **الأمر الثالث**: أن لا يحصل مراد أحد منهما؛ أي: لا يحصل لا التحريك و لا التسكين، لا يحصل مراد أحد منهما وهذا **ممتنع أيضاً** إذ لوحصل هذا لما صلح أن يكون أحدهما إله، وهو ممتنع أيضاً لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة و السكون، فالجسم إما ساكن وإما متحرك، وأيضاً يلزم منه أن الاثنين كل منهما عاجز، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً.

(وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر، فالذي يحصل مراده هو الإله، والذي لا يحصل مراده هو الذي لا يصلح للإلهية والألوهية)، هذا دليل التمانع باختصار.

يزعم أهل النظر أن هذا الدليل (دليل التمانع)، هو معنى قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}، لأنهم يعتقدون أن توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيد الألوهية الذي بيّنه القرآن الكريم ودعت إليه الرسل قاطبة، وليس الأمر كما يظن أهل الكلام، بل التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأخرهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ونزلت به الكتب، هو توحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأن الله هو الخالق الرازق، وكفار العرب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يعتقدون أن الأصنام التي يعبدونها من دون الله أنها مشاركة لله في خلق العالم؛ بل كان حالهم، كحال أمثالهم من مشركي الأمم من الهند والترك والبربر وغيرهم، تارة يعتقدون أن هذه التماثيل تماثيل قوم صالحين ويتخذونهم شفعاء، ويتوسلون بهم إلى الله عزوجل.

هذا النوع من التوحيد (توحيد الربوبية)، وقع فيه **الإلحاد والجحود** ووقع فيه الشرك:

من الذين وقعوا في الإلحاد في توحيد الربوبية[فرعون] كيف؟ بأنه ادعى لنفسه الربوبية، فقال: "أنا ربكم الأعلى"، هذا إلحاد وجحود لهذا النوع من أنواع التوحيد، أيضاً وقع الإلحاد من القائلين (بالصدفة)، الذين يقولون إن هذا العالم لا خالق له، إنما وجد هذا العالم صدفة من غير خالق، أيضاً وقع من الطبائعيين، الذين يقولون الطبيعة هي التي تخلق، فصرفوا الأفعال التي هي من اختصاص الباري جل وعلا، صرفوها للطبيعة، ولم يجعلوا لله سبحانه وتعالى حظ منها تعالى الله عما يقولون، كذلك الماركسية الشيوعيون في العصور المتأخرة، ينكرون أن الله سبحانه وتعالى موجود، وينكرون أن الله هو الرب سبحانه وتعالى، ويرون أن هذه الحياة مادة، يقولون: لا إله، والحياة مادة، والدين أفيون الشعوب، فشابهوا الطبائعيين في ذلك، بأنهم جحدوا توحيد الربوبية.

وقع أيضاً **الشرك في توحيد الربوبية**، ومن الذين وقعوا في الشرك في توحيد الربوبية:

الثنوية من المجوس، أصحاب الاثنين الأزليّين، فيزعمون أن النور و الظلمة إلهان وقديمان، يقولون: بأن هناك إله للنور وإله للظلمة، ويقصدون بإله النور (الله) سبحانه وتعالى، تعالى الله عما يقولون وعما يشركون، فأثبتوا أن لله الربوبية، وأن معه ربا غيره، لم يجحدوا ويلحدوا مثل السابقين، إنما أشركوا، أي: أثبتوا لله جزء من الربوبية، وجعلوا معه رب آخر، فوقع الاشتراك.

وأيضاً من المشركين في توحيد الربوبية، المثلِّثة من النصارى، القائلين بالتثليث، الذين أثبتوا للعالم ثلاثة أرباب، فقالوا: هو واحد بالذات، ثلاثة بالأقلوم، تعالى الله عما يقولون، فيقولون: باسم الأب والابن وروح القدس ثلاثة في واحد إلهنا وربنا، إذن هم أثبتوا ثلاثة أرباب، وجعلوه واحداً، والنصارى مختلفون فيما بينهم، لا يكادون يتفقون على عقيدة، فكيف ثلاثة يكون واحد ؟ تعالى الله عما يقول الضالون، الذين سماهم الله سبحانه وتعالى بالضالين، إذ لم يهتدوا إلى الحق، هؤلاء النصارى قالوا بالتثليث، وهم يقصدون بالأب (الله) سبحانه وتعالى، والابن (عيسى) عليه السلام، وروح القدس (جبريل عليه السلام)، فهم أثبتوا للأب كما يدعون، لله ثلثا من الربوبية، والابن شريك ثلث، ولروح القدس ثلث، فوقع الشرك منهم في الربوبية، فجعلوا لله ثلث حقه، تعالى الله عما يقولون.

القدرية، وقع منهم الشرك في الربوبية، كيف وقع الشرك منهم في الربوبية ؟

أن لازم مذهب القدرية، الذين ينكرون القدر، ويقولون الأمر أنف ويقولون أن العبد هو خالق فعل نفسه، وليس الله سبحانه وتعالى، أنهم يثبتون أن مع الله خالقا وهو الإنسان، إذ يخلق فعل نفسه.

الحاصل: أن القدرية وقعوا في الإشراك في الربوبية، حيث أنهم أثبتوا مع الله خالقا وهو الإنسان، والله سبحانه وتعالى يقول: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}، فالله سبحانه وتعالى، أثبت للإنسان خلقا، داخلا في خلقه، فالله خلق الصانع وصنعته، فهم ينفون أن الله هو الخالق، وينفون العلم عن الله سبحانه وتعالى، ويقولون: إن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه.

وأيضاً وقع شرك الربوبية من بعض عبدة الأصنام من مشركين العرب وغيرهم، بعضهم كانوا يعتقدون أن هذه الأصنام تنفع وتضر في الحياة الدنيا، فيتقربون إليها، وينذرون لها ويتبركون، على أنها تملك النفع والضر، فيعتقدون أنها تنزل المطر، وتحي وتميت، وهذا في البعض وليس السائد عند العرب.

وأيضاً، من يقول من الرافضة: بأن الدنيا والآخرة، للإمام يتصرف فيها كيف يشاء، وغير ذلك مماهو من خصائص الربوبية التي يجعلونها لغير الله سبحانه وتعالى.

أيضا، من النُصيرية من غلا في (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه وأرضاه، وقالوا: بأنه هو المتصرف بالكون، والله وحده المتصرف بالكون، فجعلوا عليا رضي الله عنه، متصرفا مع الرب سبحانه وتعالى، تعالى الله عما يقولون.

أيضا، وقع ذلك من الدروز؛ الذين غلوا في الحاكم بأمر الله (العبيدي) في الدولة الفاطمية، ومن ذلك قولهم: بأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولا يعلم الغيب إلا الله.

وفي نهاية الحلقة أعاد الدكتور شرح دليل التمانع وهو من الأدلة العقلية التي يستدل بها أهل الكلام على توحيد الألوهية والواقع أنه يدل على توحيد الربوبية